النهضة الثقافية في مدينة تنبكت
في عهد دولتي مالي وسنغي 1240-1591م

د. عبد السلام عمر عرقوب*

المقدمة:

نالت مدينة تنبكت** شهرة عظيمة، ومكانة خاصة خلال فترة عهد دولة مالي الإسلامية، ودولة سنغي، في نفوس أبناء أفريقيا عامة، وتاريخ السودان الغربي خاصة*** إذ كان تاريخها سجلاً حافلاً ليس في تجارتها فحسب، بل في ثقافتها وعلاقاتها مع جيرانها، لقد كانت مدينة تنبكت ملتقى التجار، والعلماء، والمثقفين على حدٍ سواء.

ونظراً لموقعها الاستراتيجي، ووفود العلماء، والفقهاء، والصالحين إليها من مختلف البلاد العربية، والإسلامية، خاصة من فاس، وفزان، ومصر، وطرابلس، نالت شهرة عالمية ممتازة.

إن سلاطين دولتي مالي وسنغي الإسلاميتين، اهتموا بهذه المدينة كل الاهتمام، حيث قاموا بتشجيع العلماء والفقهاء، حتى أصبحت مدينة علمية يشار إليها بالبنان، ورغم الشهرة التي نالتها تنبكت في عصر الدولتين (مالي وسنغي) إلا أنها سرعان ما سقطت في أيدي المغاربة في أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، أثناء حملة المنصور السعدي على بلاد السودان الغربي عام 999 هجرية.

سوف يتعرض هذا البحث إلى موقع المدينة في منطقة السودان الغربي، وإلى تاريخ تأسيسها، ومن أسسها؟ وما العوامل التي جعلت من المدينة تحظى بهذه الشهرة العظيمة؟ ثم توضيح أهم المساجد والجامعات بها، وكذلك أشهر العلماء الذين درسوا في جامعاتها، وغيرها من الأمور التي تهم المدينة حتى أصبحت قبلة للعلماء والفقهاء والدارسين.

علاقة مدينة تنبكت بالمرابطين:

يرتبط تأسيس مدينة تنبكت بالمرابطين، وهم الملثمون من البربر، الذين ينتمون إلى صنهاجة، الذين استوطنوا في القفار، وراء الصحراء ما بين رمال الصحراء، وما بين بلاد البربر، وبلاد السودان، من القبائل التي سكنت الصحراء (القلقشندي، د.ت، 188).

---

* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب، غريان.

** نظراً لكتابة اسم المدينة على عدة صيغ فإن الباحث قد اعتمد اسم تنبكت في بحثه هذا.

*** منطقة السودان الغربي هي المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى وادي النيل شرقاً.

وقد تباينت الآراء والروايات عن أصلهم فمنهم من يقول أن أصلهم عربي حميري ويبدو أن هذا هو رأي الأغلبية، ومنهم من يرجح أن أصلهم بربري دون إعطاء حجج قوية (بوتشيش، 1993، 8).

وقد أجمع المؤرخون على أنهم مجموعة نزحت من اليمن في تاريخ غير مضبوط، واتجهت نحو أفريقيا، حيث توقف بها قسم فاستوطنها، بينما استمر القسم الآخر بالنزوح إلى أن استقر في الصحراء الغربية المجاورة للمحيط الأطلسي، ومن هذه القبائل المهاجرة، لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وتاركة وغيرها من القبائل الصنهاجية التي استقرت في الصحراء الغربية الممتدة من غدامس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً حتى تخوم السودان جنوباً (بوتشيش، 1993، 8).

أما الصناهجة أنفسهم فإنهم يقولون أن نسبهم يرجع إلى قبيلة حمير العربية، ويؤيد هذا الرأي المؤرخ عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب السودان، الذي يقول "إن القبائل الصنهاجية يعودون في نسبهم إلى قبيلة حمير، وأنهم خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء (السعدي، 1999، 25).

أما أبو العباس القلقشندي، صاحب كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا فإنه يؤكد نسبهم إلى البربر (القلقشندي، د.ت، 188).

أما ابن خلدون فيقول في نسبهم: "لا خلاف بين نسابة العرب، إن شعوب البربر كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة، والمشهور أنهم من اليمنية وإن أفريقش لما غزا أفريقيا أنزلهم بها..." (القشاط، 1989، 20).

ومن هنا يمكننا القول أنه طالما أن البربر هم الذين استوطنوا الصحراء منذ القدم، فلا يُستبعد أن تكون قبائل صنهاجة من ضمنهم، أو على الأقل سكنوا معهم، وأخذوا من عاداتهم وتقاليدهم، حتى أصبحوا منهم وبالتالي صار بينهم نسب واختلاط. وعلى كل حال فقد استوطنت هذه القبائل الصحراء من غدامس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً.

ويبدو أن هذه القبائل كانت تدين بالديانة المجوسية، وعبادة الأوثان، كما اعتنقوا الديانة النصرانية، إلى أن بدأ الإسلام يتسرب إلى ربوعهم في مطلع الفتوحات الإسلامية (بوتشيش، 1993، 8). وقد كانت تلك القبائل في بداية أمرها، قبائل متفرقة الكلمة، تقاتل بعضها بعضاً، حتى ظهر بينهم ملك يدعى يتلوتان، الذي استطاع أن يكون أول حلف صنهاجي، ضم قبائل الجنوب، إلا أن هذا الملك توفي سنة 222 هجرية، فتوارث عقبه الحكم إلى سنة 306هـ/918م، لكن هذا الحلف أصابه التصدع بسبب الخلافات الداخلية، استمر هذا التصدع لمدة مئة وعشرين

عاماً، إلى أن تم إعادة تشكيل حلف جديد بزعامة محمد بن تيفاوت اللمطي، إلا أن هذا الزعيم لقي حتفه في إحدى المعارك، مع مملكة غانه، حيث تولى صهره يحي بن إبراهيم الجدالي، الذي استطاع أن يوجد القبائل من جديد، وأصبحت تحت سيطرته (بوتشيش، 1993، 9).

وقد عزم هذا الأمير على أداء فريضة الحج عام 427 هجرية (بوتشيش، 1993، 9). وقد تباينت أراء المؤرخين في السنة التي حج فيها يحيى بن إبراهيم الجدالي، فابن خلدون يقول: إن حج الأمير يحي بن إبراهيم، كان عام 440 هجرية. ويبدو أن صاحب كتاب العبر، قد وقع في خطأ عندما ذكر إن يحي بن إبراهيم حج عام 440 هجرية، لأن في هذه السنة توفي فيها الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي (بن خلدون، د.ت، 182).

وأغلب المصادر تشير وتتحدث عن لقاء الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي بشيخ القيروان أبي عمران الفاسي، في أواخر عام 429 هجرية أو بداية عام 430 هجرية، لأن في هذه السنة توفي أبو عمران الفاسي (محمود، 1957، 102). وعلى كل حال استطاع الأمير يحيى بن إبراهيم، وأبو عمران الفاسي، من وضع اللبنة الأولى لتأسيس الدولة المرابطية، كما أن اللقاء بينهما كان يهدف إلى وضع مخطط لتفويض الدويلات الزناتية المتناحرة، وإقامة دولة سنية مالكية (بوتشيش، 1994، 60).

يقول عبد الرحمن زكي في كتابه الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا: بعد أن آلت الزعامة إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي، أعاد تشكيل الحلف الصنهاجي الثالث، مدفوعاً بالرغبة في الهيمنة على تجارة العبور، ومستفيداً من التحولات التي طرأت على الطرق التجارية. ويبدو أن حج الأمير يحيى بن إبراهيم جاء تتويجاً لهذه النهضة الاقتصادية، وبحثاً عن سند ديني شرعي لمشروع ذي بعد سياسي مرتكز على قاعدة صلبة (زكي، د.ت، 22-23).

وأخيراً عاد الأمير يحيى بن إبراهيم إلى وطنه، وبصحبته فقيه هو عبد الله بن ياسين الجزولي، ليُعلِّم قومه أصول الدين الإسلامي، على أسس متينة وسليمة لأن إسلام قبائل الملثمين كان اسمي وسطحي، حيث كانوا يجهلون فروض الدين وعدم الالتزام بشعائره، من صلاة وصوم وزكاة، وهذا ما بيَّنه يحي بن إبراهيم الجدالي، لأبي عمران الفاسي حيث قال: "ليس منهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك محبون للخير، ويرغبون فيه، ويسارعون إليه لو وجدوا من يُقرئهم القرآن ويدرّسهم العلم، ويفقههم في دينهم، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب" (موسى، 1989، 180).

وقد باشر الفقيه عبد الله بن ياسين في تعليم قبائل الملثمين أصول الدين الصحيحة، وقد لعب دوراً بارزاً في نشر الإسلام بين القبائل الصنهاجية على أصول صحيحة، كما استطاع هذا الفقيه من إقامة رباط على حوض نهر السنغال للتعبد، وقراءة القرآن، والتدريب على وسائل الحرب والدفاع، وقد اجتمع حوله عدد من المؤيدين أطلق عليهم اسم المرابطين للزوم رباطه، وبذلك جاء اسم دولة المرابطين (نصر الله، 1983، 27).

وهكذا بدأ العدد يزداد يوماً بعد يوم حتى وصل العدد إلى ألف مرابط، وقد وضع ابن ياسين شروطاً لمن ينضم إلى رباطه، وكان بفرض عليهم إنكار ما كانوا عليه من قبل، وأن يدخلوا الإسلام من جديد، وفرض عليهم قضاء ما فاتهم من صلاة (نصر الله، 1983، 27).

موقع مدينة تنبكت:

تقع مدينة تنبكت على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف بمنحي نهر النيجر، وهي تمثل حلقة وصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى، وتعد مدينة تنبكت قريبة من نهر النيجر، فهو يبعد عنها في فصل الصيف بستة عشر ميلاً، أما في الخريف فإنه يقترب منها فيصل إلى قرية بكبر التي تبعد عن تنبكت سبعة أميال (الدالي، 1999، 92).

نشأة المدينة:

اختلفت الآراء، وتضاربت السنوات في تاريخ نشأتها، كما تعددت الروايات، فبعض الآراء تقول إن مدينة تنبكت تأسست في أواخر القرن الخامس الهجري، على أيدي قبائل طوارق مقشرن وهم من البدو قدموا إلى هذه المنطقة لرعي أغنامهم، حيث كانت لهم رحلتان، رحلة في الصيف، حيث يصيفون على ضفاف نهر النيجر في موقع مدينة تنبكت الحالي، أما الرحلة الثانية فكانت في فصل الخريف حيث يعودون إلى أوطانهم؛ وأخيراً استقر بهم المقام في موقع مدينة تنبكت وتم إنشاء المدينة، وأصبحت سوقاً مهمة يؤمها الرحالة، ويفد عليها التجار إما بطريق النهر، أو عن طريق القوافل التجارية القادمة من مراكش (محمود، 1986، 216).

أما المؤرخ حسن الوزان الفاسي المعروف (بليو الأفريقي) في كتابه وصف أفريقيا يقول: "اسم المدينة هذه حديث، وهذه المدينة تسمى تنبكتو، بناها ملك يدعى منسا سليمان سنة 610 هجرية، وهي تبعد اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر" (الفاسي، 1983، 165).

والباحث لا يؤيد ما ذكره حسن الوزان في إنشاء المدينة في عهد منسا سليمان سنة 610 هجرية، ولكن ربما الملك سليمان قام بتوسيع المدينة وزيادة الإنشاءات فيها بسبب الازدحام الذي حدث بالمدينة.

أما المؤرخ عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان، فهو يقول إن المدينة بنيت على أيدي طوارق مقشرن، في أواخر القرن الخامس الهجري، وهذه البلدة الطيبة، الطاهرة، الزكية، الفاخرة، ذات بركة ونجعة وحركة، التي هي مسقط رأسي، وبغية نفسي ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء، والعابدين، ومالف الأولياء، والزاهدين، وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم، إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم (السعدي، 1999، 92).

اشتقاق اسم المدينة:

تباينت الآراء حول اشتقاق اسم المدينة، واختلفت الروايات حول الاسم، فهناك رواية تقول بأن الطوارق إبان رحلتهم كانوا يتركون أمتعتهم وحوائجهم، لدى أمة لهم تدعى تنبكت أو تنبتكتو، تقوم بحراسة أمتعتهم وتجهيزها لهم، لذا سمي هذا المكان الذي تقيم فيه هذه المرأة باسمها تنبكت أو تنبكتو (الدالي، 1999، 92).

ولكن لو حللنا هذه الرواية، نجد أنها لا تساير الواقع أبداً فكيف يعقل أن تقوم امرأة عجوز في الصحراء بنفسها، تقوم بحراسة وتجهيز القوافل التجارية دون أن يكون معها أحد من قومها يدافعون عنها من اللصوص والمجرمين؟

ولكن الباحث يرى لو كانت هذه الرواية صحيحة، فربما يكون هذا المكان قد استقرت فيه يوم من الأيام امرأة كان لها شأن عظيم عند قدومها، ولها مكانة مرموقة بينهم ولهذا سمي المكان باسم تلك المرأة.

والباحث في هذه المسألة يتفق مع تحليل الدكتور شوقي الجمل الذي يقول فيه إن كلمة تنبكت أو تنبكتو تعني في لغة الطوارق العجوز بمعنى القديمة وبالتالي يرى الدكتور شوقي الجمل أن اسم المدينة تنبكت العجوز القديمة أو المدينة القديمة (الجمل، 1979، 35).

الصيغ التي تكتب بها اسم المدينة:

اختلف المؤرخون في كتابة اسم المدينة فبعضهم يكتبها طومبوكتو (الجمل، 1979، 35)، وبعضهم يكتبها تمبكتو والآخر يكتبها تمبكت، وغيرهم يكتبها تنبكت، فالحسن الوزان يكتبها تمبكتو والسعدي يكتبها تنبكت، وفيلكس ديبوا في كتابه تمبكت العجيبة والمترجم من قبل الدكتور عبد الله

عبد الرزاق إبراهيم يترجمها تمبكت. وعلى كل حال فكل الأسماء هي متقاربة، وهم يكتبونها حسب الترجمة وهذا لا يشكل أية معضلة.

تطور المدينة:

نستطيع القول إن مدينة تنبكت، تطورت نتيجة لظهور الدعوة الإسلامية في العصور الوسطى، خصوصاً بعد إقصاء المسلمين من غرناطة، حيث خرجت جموع كثيرة من المرابطين يدعون إلى الإسلام، مستخدمة في دعوتها اللغة العربية، كما جاءها الأخيار من العلماء والصالحين، وذوي الأموال، من كل حدب وصوب خاصة من أهل مصر ووجل، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وتتفاللت، وفاس، والسوس، وبيط (الفيتوري، 1998، 291).

كما جاءها العلماء والشعراء من الأندلس عن طريق المغرب، وتونس (الفيتوري، 1998، 291).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا أصبحت لهذه المدينة شهرة ثقافية وتجارية وتطور ملحوظ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يرى الباحث أنه نتيجة للموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به مدينة تنبكت، ووفرة المياه بها، وتوافد التجار عليها من كل حدب وصوب وبقائهم فيها مدة طويلة، أصبحت المدينة تنمو وتتطور يوماً بعد يوم، كما أن كثرة التجار وعرض بضائعهم فيها أصبحت سوقاً مكتظة بالتجار والبضائع المختلفة، زاد من ازدحام المدينة؛ كما أن كثرة العلماء والفقهاء والصالحين بها، وحاجة سكان المدينة إلى معرفة الشرائع الإسلامية على أسس صحيحة وسليمة ساهم في تطور المدينة واتساعها.

لقد تطورت مباني المدينة، فقد كانت في البداية عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين، ومسقوفة بالتبن، وكان أقدم مسجد موجود بها هو مسجد سيدي يحيى الذي بناه ملك مقشرن، وذلك قبل عهد السلطان منسا موسى (الدالي، 1999، 165).

لكن هذه المباني تطورت في عهد ملوك دولة مالي الإسلامية، التي أصبحت لها السيطرة على المنطقة بعد تغلبها على مملكة غانة الوثنية عام 1076، وانتقال الزعامة إليها وسيطرتها على المنطقة من عام 1240 إلى عام 1488م، فقد تطورت المدينة خاصة في عهد منسا موسى الذي اعتلى العرش في دولة مالي سنة 1307م، حيث بلغت دولة مالي في عهده أوج قوتها وثرائها، وقد استطاع هذا الملك من فتح مدينة تنبكت، وقد وصفه ابن خلدون بأنه: "رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً له في العدل أخبار تؤثر عنه.." (القلقشندي، د.ت، 294).

اهتم سلاطين مالي بمباني تنبكت، حيث تم بناء المسجد الجامع. وقد تم بناؤه بالحجر المركب بالطين والجير، وقام ببنائه مهندس أندلسي من مدينة أمانا. يقول السعدي: إن هذا المهندس جاء من أرض الحجاز بصحبة السلطان منسا موسى، الأمر الذي زاد المدينة ازدهاراً وجمالاً، كما تم بناء مسجد سنكري، ويقال إن هذا المسجد قد أنشأته سيدة ثرية باسم سنكري، ويبدو أن هذا المسجد لم يكتمل بناءه إلا في أواسط القرن العاشر في أيام أسكيا داود بن الأمير أسكيا الحاج محمد (طرخان، 1973، 148-149).

ازدهار الثقافة في مدينة تنبكت:

ازدهرت الحركة العلمية في مدينة تنبكت، بفضل تواجد العلماء، والفقهاء والصالحين عليها، خاصة من ليبيا، ومصر، وتونس، والمغرب، والأندلس؛ وقد وجد هؤلاء العلماء، وأهل الفكر، والثقافة التشجيع من أهل تنبكت وملوكها طيلة فترة حكم دولة مالي، وسنغي، فقد أغدق ملوكها على العلماء بسخاء، الأمر الذي جعل من المدينة تقوم بها حركة أدبية واسعة النطاق، لم يعرف السودان الغربي لها مثيلاً (الدالي، 1999، 102).

كما تدفقت على المدينة المؤثرات الثقافية من الشمال، ولم تكن الصحراء عائقاً دون تدفق المؤثرات الثقافية، والحضارة العربية الإسلامية إلى مناطق ما وراء الصحراء. ويبدو أن مدينة تنبكت وصلت إلى قمة مجدها في تطورها الثقافي بسبب تثبيت دعائم العقيدة الإسلامية في دولتي مالي وسنغي، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى جهاد دولة المرابطين في نشر الإسلام، والحضارة العربية الإسلامية، في تلك البقاع من أفريقيا جنوب الصحراء، بعد أن تمكنوا من إسقاط دولة غانة عام 1076م، الأمر الذي جعلهم يتحركون بحرية تامة في نشر الإسلام، والثقافة العربية في تلك البقاع (الدالي، 1999، 102).

ونتيجة للازدهار الذي ساد مدينة تنبكت، أصبحت لها شهرة ثقافية ممتازة، وبرز فيها عدد من العلماء الأجلاء، أمثال القاضي محمود كعت، صاحب كتاب الفتاش، الذي يفتخر بأنه من مواليد مدينة تنبكت، فيقول: "التمبكتي مسكناً الوعكري أصلاً..." (كعت، 1964، 9).

كما تطور مسجد سنكري إلى جامعة علمية، وأصبحت لها علاقات مع مراكز الثقافة والمعرفة خاصة مع الأندلس، وفاس، ومراكش، وطرابلس، وتونس؛ حيث ساد التشابه بينهما وبين جامعة القرويين بفاس من حيث أساليب التدريس والمناهج التي كانت تدرس في فاس وتنبكت (الدالي، 1999، 106).

ويرجع الفضل إلى السلطان منسا موسى، الذي اهتم بالجامعة، وأحضر إليها خيرة العلماء والفقهاء للتدريس بها، كما أنه شجع إيفاد الطلاب من جامعة سنكري إلى جامعة القرويين بفاس، وإلى طرابلس، والجامع الأزهر.

كما أحضر إليها نوادر الكتب القيمة من مصر والحجاز، وتم إنفاق أموال طائلة على شراء الكتب (طرخان، 1973، 151؛ الدالي، 1999، 107).

أما في عهد دولة سنغي 1468-1591م، فقد أصبحت الدولة مفتوحة أمام العلماء والفقهاء، وكان حكامها يحترمون العلماء، ويطبقون تعليماتهم، والأخذ بنصائحهم، فقد استجاب أسكيا محمد أحد أمراء دولة سنغي إلى توجيهات الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي، وكان المغيلي قد رد على ملك سنغي حينما شكا إليه جهل علماء بلاده بالعربية، وبأمور الدين، وبعدم أهليتهم الشرعية في تولي المناصب القيادية بقوله: "وجب عليك أن تطلب عالماً من أهل الذكر حيث كان، لأن أهل الذكر في هذه الأمة كالأنبياء من الأمم الماضية يجب الاعتماد عليهم والسعي إليهم..." (فضل الله، 1987، 223).

وقد وجد العلماء كل الرعاية والاهتمام من قبل دولة سنغي، التي وفّرت لهم المكتبات الزاخرة بالكتب الثمينة والنادرة، وفي ظل حكم دولة سنغي وجد العلماء تشجيعاً منقطع النظير، حيث قاموا ببناء المدارس والخلوات، التي كانت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء. وفي عهد أسكيا محمد الكبير تكفلت الدولة ببناء مأوى للطلاب، ومنحتهم مكافآت مالية، كما منحت العلماء رواتب مجزية وسخية، وبذلك توافد عليها العلماء الأجلاء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، كما أصبحت المدينة قبلة للأساتذة الزائرين (فضل الله، 1987، 223).

وقد صُدرت التعليمات والمراسيم، التي تنص على أن رجال العلم وأولادهم ومالهم في أمان تام، وحماية كاملة، تكريماً وإجلالاً للعلم (الدالي، 1999، 107).

وقد اهتم علماء تنبكت بتدريس الكتب، التي كانت تدرس في الشمال منها على سبيل المثال، الموطأ للإمام مالك، والمدونة، والمختصر، والأصول، والبيان، والمنطق، وأصول السبكي، وتلخيص المفتاح، ومختصر خليل، والفية العراقي، وصغرى السنوسي، وشرح الجزيرة، وكتاب الشفاء للقاضي عياض ونسيم الرياض، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وجامع المعيار للونشريسي وغيرها (الدالي، 1999، 107).

ومن العلماء الأفذاذ الذين أدوا دوراً بارزاً في سبيل نشر العلم والمعرفة، وأناروا الطريق، منهم ابن عبد الرحيم الذي عمل أستاذاً زائراً في الأزهر والعالم الجليل أحمد بابا التنبكتي، وعبد الرحمن السعدي، والقاضي محمود كعت (فضل الله، 1987، 224).

ويعد أحمد بابا موسوعة علمية، حيث بلغت مؤلفاته ما يربو عن الثلاثين مخطوطة، وكان أسلوبه في التأليف مغربياً، وبالقلم المغربي (فضل الله، 1987، 224).

ومن العلماء أيضاً أحمد بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي، وقد عرف بالحاج أحمد، وهو جد العلامة أحمد بابا، وهو من الفقهاء العظام، وكان مهتماً بالأدب، وقد تعلم على يد أساتذة أجلاء منهم جده لأمه الذي اشتغل بالقضاء في المدينة، وأخذ النحو عن خاله مختار النحوي (الدالي، 1999، 115).

هكذا انتشر العلم والعلماء بمدينة تنبكت، وقد بلغت المدارس في نهاية القرن السادس عشر مئة وخمسين مدرسة (فضل الله، 1987، 224).

كما انتشرت المكتبات في مدينة تنبكت، ومعظم بلدان غرب أفريقيا بالمكتبات التي تمتلكها أسر أو أفراد، وهذه المكتبات تحتوي على الكتب النادرة والنفيسة (الهرامة، 1987، 230).

إن الحديث عن مدينة تنبكت لا ينفصل عن الإسلام والعروبة، فأهل تنبكت يعتزون بانتمائهم إلى أمة الإسلام وإلى الناطقين بلغة القرآن.

تنبكت والغزو المغربي لسنغي:

كانت العلاقات بين مراكش ودولة سنغي في بداية الأمر علاقات وطيدة قائمة على التبادل التجاري والثقافي، وقد لعبت تجارة الذهب والملح دوراً بارزاً في استمرار العلاقات الطيبة لعدة قرون؛ لكن هذه العلاقات الوطيدة لم تستمر على نفس الوتيرة السابقة فسرعان ما تغيرت عندما ارتقى العرش المغربي السلطان أحمد منصور السعدي عام 1578م، الذي انتابه هاجس السيطرة على مصادر الذهب والملح في سنغي (وايدنر، 1976، 34).

ويبدو أن السلطان أحمد منصور السعدي قبل أن ينفذ مخططه استشار كبار مستشاريه والفقهاء والمقربين منه، إلا أنهم لم يتحمسوا لهذا المشروع خشية أن يقع الجيش المغربي في مأزق خطير وتعرضه للعطش والجوع في الصحراء لبعد المسافة ومشاق الصحراء (فضل الله، 1987، 225).

إلا أن السلطان أحمد استطاع أن يقنع مستشاريه مذكراً إياهم بأن الصحراء لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً أمام التجار، فكيف تكون حاجزاً أمام الجيش المزود تزويداً كاملاً بالماء والمؤن والعتاد، كما أن المنصور أقنع مستشاريه بأن بلاد السودان غنية بالمعادن الثمينة مثل الذهب يجب الاستفادة منها (فضل الله، 1987، 225).

بدأ السلطان أحمد يمهد لغزو دولة سنغي، حيث أرسل سفارة في عام 1583م، حاملة هدايا قيمة، ويبدو أن الهدف الحقيقي من وراء إرسال هذه السفارة هو التعرف على الطرق المؤدية إلى سنغي ومعرفة المدن الرئيسية ودراسة أحوال الجيش (ديبوا، 2005، 111).

لقد أصبح السلطان قلقاً جداً خوفاً من ضياع الفرصة، ولهذا أسرع في إعداد جيش من عشرين ألف رجل، وتحرك متجهاً نحو تنبكت في مسيرة امتدت خمسة أشهر دخلوا بعدها مدينة تنبكت (وايدنر، 1976، 35).

ويبدو أن المنصور اهتم بالجيش حيث زوده بالأسلحة، خاصة المدافع وعجلات لحمل البارود والرصاص، واستمر في تجهيز الجيش لمدة ثلاث سنوات وقد تم إسناد قيادة الجيش إلى شاب إسباني النشأة من مدينة غرناطة وقع في أسر المغاربة وهو صغير، وتربى في قصر الملك هذا القائد هو جودر باشا (الفيتوري، 1998، 313).

بدأت الحملة سيرها نحو جبال أطلس ثم واصلت سيرها حتى وصلت مدينة كبرا على نهر النيجر، وكان أسكيا اسحاق الثاني قد أدرك نوايا المنصور، حيث أرسل إلى زعماء القبائل الصحراوية بردم آبار المياه لكي لا يستفيد منها الجيش المغربي (الفيتوري، 1998، 313).

وفي شهر فبراير عام 1591م التقى الجيشان، ودارت بينهما معركة حاسمة في موقع مدينة تونديبي، التي لا تبعد كثيراً عن مدينة تنبكت. وقد كانت قوات أسكيا داود تقدر بحوالي ثلاثين ألفاً من المشاة، واثني عشر ألفاً من الفرسان (ديبوا، 2005، 114).

مما سبق تبين لنا أن غرض حملة المنصور هو الاستحواذ على خيرات دولة سنغي خاصة الذهب والملح، وجلب أعداداً كبيرة من العبيد وتوسيع دولته، كما أن الحملة لا تهدف إلى نشر الإسلام في تلك المواقع بدليل إن الحملة لم يكن من ضمنها الدعاة والفقهاء لنشر رسالة الإسلام السمحاء.

ويتبين لنا أيضاً إن قائد الحملة جودر باشا لم يكن مسلماً أصلاً وأن عدداً من الجنود لم يكونوا مسلمين أيضاً. كل هذه الدلائل تشير إلى أن الحملة لم يكن هدفها نشر الإسلام، وإنما الهدف الحقيقي من ورائها هو هدف اقتصادي.

أما مدينة تنبكت التي ثارت ضد الغزاة، فقد لقيت عقاباً قاسياً حيث تم استئصال أيدي وأذرع اثنين من أهم الشخصيات بها، وتركا حتى الموت، وتم ذبح الكثير من رجال العلم، ورجال الدين، والمرابطين الذين كانوا مثار فخر واعتزاز لهذه المدينة العظيمة، كما سجن بعضهم وعذبوا، وتم إرسال عدد منهم إلى مراكش، ولم يعد منهم إلا القليل (ديبوا، 2005، 117).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا هذا الانتقام من هذه المدينة العريقة؟ والإجابة عن هذا السؤال أن الباحث يرى أن علماء وفقهاء هذه المدينة كان لهم دور في تحريض أهل المدينة للدفاع عن مدينتهم ومقاومة الغزاة، وعدم التسليم لهم، والمحافظة على عراقة المدينة وتراثها، لهذه الأسباب مجتمعة صممت الحملة للقضاء على هذه المدينة والقضاء على علمائها وفقهائها لأنهم كما أشرنا كانوا المحرضين على صمود أهلها أمام الغزو المغربي.

كما أن الباحث يستنتج أيضاً إن هدف المنصور هو تكوين دولة مترامية الأطراف، تشمل المغرب وجنوب الصحراء، وطالما أن هؤلاء العلماء والفقهاء يحرضون الناس ضد الحملة فمن الطبيعي أن تعمل حملة المنصور على دأب شافة الناقمين على الحملة حتى تصبح الطريق أمام الحملة مفتوحاً إلى أرجاء المنطقة كافة.

ورغم العذاب والتنكيل الذي لقته مدينة تنبكت، إلا أن مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ظلت سائدة في منطقة السودان الغربي، ولم تنته بسقوط تنبكت عام 1591م، إذ حافظ المسلمون الأفارقة على أنماطهم الإسلامية الموروثة بكل فخر واعتزاز. فظلت هذه التنظيمات الإسلامية متماسكة حتى مجيء الاستعمار الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (فضل الله، 1987، 226).

الخلاصة: مما سبق يتضح لنا أن مدينة تنبكت تتمتع بموقع استراتيجي مهم، حيث إنها ملتقى التيارات الثقافية والتجارية، قصدها العلماء والفقهاء والتجار من كل مكان، حتى غدت مدينة ثقافية وتجارية في منطقة السودان الغربي. وقد أثبتت الدراسة أن هذه المدينة أنشئت على أيدي قبائل طوارق مقشرن في القرن الخامس الهجري، وأصبحت تتطور يوماً بعد يوم بفضل تواجد التجار والعلماء والفقهاء إليها، والذين وجدوا التشجيع من قبل حكامها خاصة في عهد دولة مالي الإسلامية وملكها منسا موسى، الذي شجع عملية التبادل الثقافي بينها وبين المراكز الثقافية في الشمال خاصة فاس والقيروان وطرابلس ومراكش ومصر، وغيرها من المراكز الثقافية المشهورة في الشمال الأفريقي. وقد انتشرت المساجد في مدينة تنبكت التي أدت دوراً مهماً في نشر العقيدة الإسلامية السمحاء، زد على ذلك أن بعض المساجد تطورت حتى أصبحت جامعة منها مسجد سنكري، الذي

أسسته امرأة ثرية، وأصبحت هذه الجامعة تضاهي جامعات الشمال الأفريقي مثل جامعة الزيتونة، والأزهر الشريف، وتشابهت أساليب التدريس والكتابة بينها وبين جامعة القرويين وغيرها.

وعندما قامت دولة سنغي، وأصبحت لها السيادة على تنبكت سار زعماء الدولة على المنوال نفسه التي كانت به دولة مالي الإسلامية من حيث تشجيع العلماء والفقهاء، وأصبحت البلاد مفتوحة أمام العلماء، وفي ظل دولة سنغي نهضت الحركة الفكرية في المدينة، حيث قام زعماء دولة سنغي ببناء المدارس، والخلوات، وفي عهد أسكيا محمد تكفلت الدولة ببناء مأوى للطلاب، ومنحتهم مكافآت مالية، كما منحت العلماء رواتب مجزية وسخية، ومن أجل ذلك توافد عليها العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وبالتالي أصبحت المدينة قبلة للأساتذة الزائرين، كما عمل ملوك سنغي على جلب الكتب القيمة والنادرة إلى تنبكت، وبذلك أصبحت هناك نهضة ثقافية في المدينة، وبرز فيها علماء أجلاء، أدوا دوراً بارزاً في سبيل نشر العلم والمعرفة، والثقافة الإسلامية.

نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العالم الجليل أحمد باشا التنبكتي، وعبد الرحمن السعدي، والقاضي محمود كعت، وأحمد بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي وغيرهم كثير. وازدادت المدارس في عددها، فقد وصلت في نهاية القرن السادس عشر إلى مئة وخمسين مدرسة.

إلا أن هذه المدينة تعرضت للدمار والتخريب، أثناء الغزو المغربي إليها عام 1591م، وتعرض العلماء والفقهاء إلى العذاب والتنكيل بهم، فتم تعذيب بعضهم حتى الموت، كما تعرض بعضهم إلى السجن وتم إرسال بعضهم إلى المغرب ولم يعد منهم إلا القليل.

ورغم ما تعرضت له مدينة تنبكت من تخريب ودمار وتنكيل بعلمائها، إلا أن مظاهر الحضارة الإسلامية ظلت سائدة في المنطقة ولم تنته بسقوط تنبكت عام 1591م على أيدي قادة الحملة المغربية، بل حافظ أهلها على أنماطها الإسلامية الموروثة.

قائمة المراجع

1- بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ج6 .- بيروت : منشورات الأعلى للمطبوعات.

2- بوتشيش، إبراهيم القادري. (1993) المغرب والأندلس في عصر المرابطين.- بيروت : دار الطليعة.

3- بوتشيش، إبراهيم القادري. (1994) تاريخ المغرب الإسلامي.- لبنان- بيروت: دار الطليعة.

4- الجمل، شوقي . (1979) "الحضارة الإسلامية العربية في أفريقيا سماتها وعوامل انتشارها".- مجلة الدراسات الأفريقية ،ع7.

5- الدالي، الهادي المبروك (1999) .مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع أهم المراكز بالشمال الأفريقي من القرن 13-15م.- ط2.- الزاوية : مطابع الوحدة العربية.

6- ديبوا، فيلكس؛ ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة: شوقي الجمل (2005) تمبكت العجيبة.- القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة.

7- زكي، عبد الرحمن . (د.ت) الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا.- القاهرة : مطبعة يوسف.

8- السعدي، عبد الرحمن (1999) . تاريخ السودان.- مطبعة بردين : مدينة انجي.

9- طرخان، إبراهيم علي (1973) .- دولة مالي الإسلامية.- القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب.

10- الفاسي، الحسن بن محمد الوزان ؛ ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر (1983). وصف أفريقيا، ج1 .- ط2.- لبنان- بيروت: دار الغرب الإسلامي.

11- فضل الله، قمر الدين محمد (1987) . "لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية 1468-1591".- مجلة كلية الدعوة الإسلامية،ع 4.

12- الفيتوري، عطية مخزوم (1998) . دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء .- بنغازي : منشورات جامعة بنغازي.

13- القشاط، محمد سعيد (1989) . التوارق عبر الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث الصحراء.- ط2.- إيطاليا: مطابع اديتار.

14- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (د.ت) . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5 .- القاهرة : المؤسسة العامة للتأليف والنشر والطباعة.

15- كعت، محمود (1964) . تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس.- باريس: نشر هوداس وبنيه.

16- محمود، حسن أحمد (1957) . قيام دولة المرابطين .- القاهرة : دار الفكر العربي.

17- محمود، حسن أحمد (1986) . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا.- القاهرة : دار الفكر العربي للنشر.

18- موسى، عز الدين عمر (1989). " محاولة لإعادة تقييم دولة المرابطين في نشر الإسلام في البلاد السودانية" .- أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء.- ليبيا: كلية الدعوة الإسلامية.

19- نصر الله، سعدون عباس (1983) . دولة المرابطين في المغرب والأندلس.- لبنان، بيروت،: دار النهضة العربية.

20- الهرامة، عبد الحميد (1987)." تنبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي".- مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ع 4.

21- وايدنر، دونالد ل؛ ترجمة علي أحمد فخري (1976) . تاريخ أفريقية جنوب الصحراء، ج1 .- القاهرة : نشر مؤسسة سجل العرب.